صور من الحياة :

قبعة ...

الأستاذ كامل محمود حبيب

اتذكر — يا صاحبي — يوم ان لبست القبعة لأول مرة ، يوم أن كنت ترسف في قيود أربعة : أبيك وهو باق الطابع شيطاني الجبلة أرضي النزعة ، وأمك وهي مستكينة واهية متداعية ، ورئيسك وهو يستذلك بفضله وأياديه ، وعميدك وهو يتخذك صنيعة له وداعية لأغراضه . اطالما استيقظت كرامتك فتراءيت في عين نفسك سقيم الوجدان مستلب الرأي والإرادة ، وكنت لا تجد خلاصاً إلا أن تمق والديك فلا تزورهما أبداً ولا تعنى بأمرهما ، وإلا أن تستخذي لرئيسك وأن تتودد لعميدك عسى أن تكسب الرضا أو تدفع الأذى .

ورأيت الميناء يموج بالسفر من كل جنس ، وإلى جانب كل مسافر ثلة من الأهل والأصدقاء يودعون وينصحون ويشجعون . وإن كلمات الوداع الحارة لتصاعد حواليك تصك مسمعيك ، وإن عبرات الحب والإخلاص لتنهمر هنا وهنالك على خطوات منك لتكون قذى في عينيك . ولكنك أنت لم تجد صاحباً واحداً يرفه عنك وينفث فيك من روحه ومن شجاعته ومن حبه ، فوقفت وحيداً تنظر .

وتحركت الباخرة فوقفت على ظهرها جامداً ترمق أرض الوطن وهي تتوارى خلف الأفق فما نبض قلبك بشوق ولا خفقت روحك بحنين ولا جاشت مشاعرك بعاطفة . ثم وليت وجهك شطر الغرب ، ورحت تتنسم أول نسمات الحرية — كرأيك — حين خيل إليك أنك ألقيت عن نفسك قيوداً أربعة كبلتك بها الوطن .

ترى هل استمتعت هناك بالحرية التي افتقدت هنا ؟

وتقبلك عميد الجامعة هناك بقبول حسن لأنك صنيعة معهد (كذا) الأجنبي ، وإن جناب العميد لرجل علم وأدب وإنه لذو حيلة ودهاء ، ولكن ماذا أفدت هناك ؟

لقد عشت هناك مثلما عشت هنا : منقبض الأسارير تأنس بالوحدة وتطمئن إلى الخلوة ، تغدو إلى الجامعة وتروح إلى الحجرة ، تصغي إلى الدرس — صدر النهار — في غير ملل ، وتنكب على الكتاب — شطراً من الليل — في غير ضجر ، وإن عميد الجامعة هنا ليحبوك بعطفه ويغمرك بفضله لأنه يمت إلى عميد المعهد هنا بأواصر هي : الصداقة في الشباب والأخوة في الدرس والوحدة في الجنس والتآلف في الرأي . وأنت هناك طالب الجامعة مثلما كنت هنا طالباً في المدرسة ترضى بالقليل وتقنع بالتافه ، وأنت هناك خامل الذكر مثلما كنت هنا وضيع الهمة ، وأنت هناك بعيد عن لذائذ الحياة ومتعها مثلما كنت هنا تعاني الحرمان والضيق . ولكن عميد الجامعة أراد فأصبحت ، بعد سنتين ، دكتوراً في الفلسفة . وتراءيت في عيني رأيك فيلسوفاً ضخماً فتصنعت الرزانة وتجملت بالهدوء ، ثم ركبك الغرور وجرفتك الكبرياء ، فما كان يليق بك أن تكون رجلاً ممن يعيش في مضطرب الحياة وتوازعها ، وأنت ابن سقراط وتربه كنت وصاحب ديكارت . ولكن ، آه — يا صاحبي — لقد عجزت الفلسفة عن أن تسوي منك رجلاً آخر غير الذي كانه منذ سنين ، إلا أن تلوي لسانك بكلمات لا تبينة فتزيدك عيًّا على عيك ، وإلا أن تشوب لهجتك لكنة أعجمية بغيضة إلى القلب والنفس فتضيف حقاً إلى حق فيك ، وإلا أن تجهر بآراء هدامة تحسبها حديثة مبتكرة فتضم سفهاً إلى سفه فيك . ثم ... ثم جلست إليّ في ندوة ثقافية في القاهرة تحدثني بآرائك قائلاً « أما ابن الطبيعة وثمرة الحرية فدعني أهم في أرجاء الأرض لا يقيدني وطن ، ولا يمسكني دين ، ولا تربطني لغة . دعني أنطلق منها فهي أغلال ثقال تشل عقلي وتصمم خواطري وتبعث بأفكاري » فعجبت أن يكون هذا حديثك وأنت ابن الريف وثمرة النيط وربيب الدين !

ماذا دهاك ، يا صاحبي ؟ أفكان لسنتين أن تحولا عقلك من حال إلى حال فتنزل عن كرامتك وتنبذ المعاني السامية للوطن والدين واللغة ، على حين قد عشت نيفاً وأربعين سنة في وطنك ، عشتها جميعاً تتنقل بين المدينة والريف ، وأنت في المدينة لا تحس إلا العمل الشاق المضني وإلا هذا الزقاق الضيق القذر الذي تسكن في ناحية منه ، وأنت في الريف لا ترى إلا أهلك وهم من أوساط

الناس وإلا دارك وإن رائحة الروث ما تبرح تتأرج فى جنباتها .

يا عجبا ! فما بال الشاب يذهب إلى هناك ليعيش سنوات وسنوات، وهو فى ثورة الشباب وغرة الصبا، يستمتع بالقوة والثراء ويتألق فى النضارة والذكاء ... ما باله يعود إلى وطنه فلا تحس فى لسانه الثراء ولا فى كلامه لكنة ولا فى آرائه جفوة ، على حين أنه بلغ غاية العلم وتسنم ذروة الفلسفة .

قد كان لى أن أقول : لعل أضواء المدنية فى الغرب قد خلبتك فمشى بصرك فما عدت ترى فى الشرق إلا ذبالة توشك أن تنطفىء ، أو لعل نور الثقافة الإفرنجية قد سلبك عقلك فما أصبحت تلمس هنا — فى الشرق — إلا ظلمات من الجهل تكاثف بعضها فوق بعض ، أو لعل بهرج الحضارة هناك قد طمس على قلبك فرحت تحتقر الوطن والدين واللغة ... قد كان لى أن أتلمس لك عذراً فى شىء من هذا لو أنك أخذت منها بنصيب أو ضربت فيها بسهم ، ولكنك عشت هناك على حيد الحياة لا ترى إلا الكتاب والقرطاس والحجرة ، ولا تحس إلا العمل المرهق ، ثم ... ثم الوحدة والحرمان .

ورجعت — يا صاحبى — إلى وطنك لتلتقفك قيودك من جديد . ولكن القبعة التى لبست ترفعت عن القرية وتسامت عن الريف ، وأبوك شيخ هِمٌ عصفت به السنون فأعطت قوته ووهى جَلَده فهو يرنو إلى عطفك ويصبو إلى حنانك ، وأمك عجوز شمطاء قد عبث بها الزمن فتقوس ظهرها وسقطت أسنانها فهى تهفو إليك ، وقلبها يرف حواليك . لقد ترفعت القبعة عن القرية فى حين أنها تسيدت لرئيسك القديم واستحذت لسيد المعهد الأجنبى . وهكذا تحررت من قيدين لترسف فى قيدين .

وجاءك رسول أبيك يقول لك « إن أباك يكاد يلفظ آخر أنفاسه ، وإنه ليهتف باسمك بين الحين والحين ، وهو فى غمرة المرض ووطأة الحمى ... » وأصغيت إلى الحديث — يا صاحبى — بأذنك ، وقلبك فى شغل لا يحس معنى الإنسانية ، فما انطلقت إلى القرية إلا حين جاءك البرق يقول « مات أبوك اليوم » مات أبوك وفى قلبه شوق يتأجج لأن يرى ابنه العاق .

وجلست إليك أمك فى ضعفها وشيخوختها تستجدى عطفك ورحمتك ، فأصغيت أنت إلى حديثها بأذنك ، وقلبك فى شغل لا يحس معنى الإنسانية . وجرفتك كبرياء القبعة فاستوليت على ميراثك من أبيك وهو ضئيل ، ثم طرت عن القرية إلى الأبد لتذر أمك وحدها ...

وجئت أنا — بعد أيام — لأعزيك فى أبيك ، فالتقيتك تبسم — لأول مرة فى حياتك — وأنت مسفر الوجه طلق المحيا . لقد كان يخيل إلى أننى سأراك منكسف البال شارد الذهن وقد أرمضك الحزن وهدك الأسى ، يفريك الندم على أن قصرت فى حق أبيك ، وامتهنت أمنيته الأخيرة وهو على فراش الموت . فما بال أراك فى نشوتك وسرورك لا يعنيك إلا أن تظفر ببعض ماله ! لقد تراءيت فى ناظرى رجلاً نزل من رجولتك وإنسانيته وكرامته فى وقت معاً ، فكرهتك واحتقرتك .

يا لقلبى ! إن فى الحياة أناساً يتشحون بثوب الإنسان وإن ضلوعهم لتنضم على مثل روح الشاب ! آه لو انسلخوا من إهابهم لتكشفت نفوسهم عن مثل لون الجيفة !

وهناك ، فى البلد الأجنبى ، تعلمت فلسفات ثلاثاً نبت كلها من القبعة التى لبست بعد أن تيمنت على الأربعين : فلسفة التفوق والجود ، وفلسفة الكفران والكنود ، وفلسفة الاستسلام والخضوع ...

وتلتقفك هنا رئيسك وعميدك معاً . أما رئيسك فموظف كبير فى الحكومة ذو شأن ومكانة ، وأما عميدك فرجل أجنبى ذو جاه وسلطان . وتتنازعك الرجلان حيناً ، ثم ظفر بك العميد . ظفر بك لتتحدث بلسانه وتفكر برأيه وتتقاسف بعقيدته ، ولتنفث سموم جنسه فى شباب الجيل ، ولتعلم النشء أن القبعة شىء مقدس يستهوى العقل ويستعبد له الفكر ، على حين أنها شيطان يتوثب مكراً وخداعاً .

وجلست إلى تلامذتك توحى إليهم بفلسفة القبعة . وبدا لأعينهم ما يتوارى خلف كلماتك فتلاقت نظراتهم فى عجب ، وتقابلت ابتساماتهم فى سخط ، ثم انصرفوا من لدنك وعلى ألسنتهم كلمات الاحتقار والسخرية . لقد سخروا منك أنت أيها الفيلسوف العظيم لأنك أردت أن تمكر بهم وتستلبهم من الوطن والدين واللغة فما انطلى عليهم أسلوبك ولا خدعتهم فلسفتك . وقال واحد منهم : إن أستاذنا الفيلسوف قد لبس القبعة ذات مرة ... ليسها ليتزل من كرامته ، ولينبذ المعانى السامية للوطن والدين واللغة ...

كامل محمود حبيب